الإسلام والعلم

* دائرة العلم فى الإسلام.
* العلم الذى يدعو إليه الإسلام.
* أهداف الرسالة الإسلامية .
* منزلة العلم فى الإسلام.
* مكانة العلم فى الإسلام.
* فضل العلم الدينى .
* ثمرة الحث على العلم.
* أسطورة التعارض بين الإسلام والعلم.
* المناهج العلمية بين الإسلام والحضارة الحديثة.

١ـ دائرة العلم فى الإسلام

ونقول ابتداءً :

إننا لا نأخذ كلمة « العلم » بالمفهوم الحديث فحسب . والمفهوم الحديث هو الذى تأخذ به أوربا ، وتأخذ به جامعاتنا المصرية وغيرها من الجامعات حينما تستعمل الكلمة .

وهذا المفهوم هو :

«العلم هو القواعد التى بُنيت على الملاحظة ، والتجربة ، والاستقراء » .

وهو بهذا المفهوم يختص بالجانب المادى . . إن دائرته الكون : السماء والأرض ، وما بين السماء والأرض .

أما ما وراء هذا الكون ، وأما ما قبل هذا الكون ، وأما ما بعد هذا الكون ، فإن العلم ـ بالمفهوم الحديث ـ لا يتعرض له ، وذلك لأنه لا يدخل تحت دائرة الملاحظة والتجربة والاستقراء .

ولعل القارئ يدرك من هذه الكلمات السابقة أن العلم بهذا المفهوم الأوربى لا يتأتى له أن يحكم على ما ليس فى دائرته . . ومن أجل ذلك : فإن العَالِم ـ أىَّ عَالِم ـ لا يستطيع إنكار الألوهية ولا البعث ولا الغيبيات على وجه العموم .

والعَالِمُ الذى ينكر ـ بصفته كعَالِم ـ وجودَ الله ، أو ينكر البعث ، فإنه يكون قد خرج عن صفته كعَالِم . . ولا يوصف فى

أجواء العلماء إلا بأنه مهرِّج ، وإنه ليكفى أن ينكر ـ بصفته كعالم ـ شيئاً من الغيبيات ليسحب العلماء ثقتهم فيه ، وينبذوه من محيطهم .

وذلك لأنه ما دامت قد حُدِّدت دائرة العلم بأنه ما بُنى على الملاحظة والتجربة ـ أى : ما كان مجاله المادة ـ فإنه إذا تعرَّض عالم لما ليس من اختصاصه على أنه علم فإنه يكون بذلك قد خرج على أوضاع العلماء فى مفهوم العلم ، وخرج على مبادئهم المقررة فى دائرة العلم : وهى المادة .

قلنا إننا لا نأخذ مفهوم العلم بالمعنى الأوربى ، بل سنأخذ مفهوم العلم بالمعنى الإسلامى . ومفهوم العلم بالمعنى الإسلامى أوسع دائرة ؛ إنه المعرفة بكل نافع من الأمور . . إنه المعرفة بالكون وبما وراء الكون ، بالوجود المادى وبالوجود الروحى ؛ إنه المعرفة بالآفاق وبالأنفس وفى نطاق ذلك يدخل العلم بالمادة أو العلم بالمفهوم الحديث .

وهذا المفهوم الحديث للعلم هو اصطلاح حديث ؛ فما كانت كلمة العلم فيما مضى ـ فى أوربا ، وغيرها ـ تعنى القوانين التى تسير عليها المادة فحسب ، وإنما كانت الكلمة مطلقة ، فلمَّا كانت النهضة الأوربية الحديثة قُسِّمت أنواع المعرفة ، بحسب مَلَكَات الإنسان وشعوره ، وذلك لتسهل التفرقة بين مجالات المعرفة ، وليسهل الحكم فى كل مجال .

هناك المجال الذى يسرح فيه « الحسُّ »، ويجتلى معالمه، وهو المادة، وسمَّى العلماء المُحْدَثُونَ مجال الحس «علماً»، وهناك مجال يلعب فيه « الوجدان والذوق » الدور الأول، وسمَّى العلماء المحدثون هذا المجال « فَنّاً ».

وهناك مجال هو من شأن « العقل البحت » وهذا المجال ينقسم إلى قسمين :

(أ) قسم الرياضة ، وهو يقين كله.

(ب) قسم الإلهيات ، حينما تقوم على العقل وحده .. وقسم الأخلاقيات بمعناها الواسع حينما تنبع عن العقل وحده، وهذا القسم هو « الفلسفة ».

أما ما كان مردُّه إلى البصيرة والوحى وصلة الإنسان ـ النبى أو الرسول ـ بالله تعالى فإنه « الدين »، وليس الدين قواعد خاصة بالمادة، وإن كان يتحدث عنها ـ عَرَضاً ـ أحياناً.

وليس الدين من أجل أذواق تتصل بالفن ، وإن كان له فى ذلك توجيهات أحياناً.

وليس مصدر الدين (كمنبع ومرجع) العقل، وإن كان ما أتى به يقرُّه العقل كله، ومبادئه لا تتناقض مع العقل.

وإذا كنا فى مقالنا هذا، نأخذ العلم بالمفهوم العام ـ كل نافع من المعرفة ـ فإننا ننبه إلى أن كل ما أُسِّسَ على القرآن والسُّنَّة فهو فى نطاق المجال الدينى، وأن بحثنا هذا إنما كان لبيان موقف الإسلام

من العلم بالمفهوم العام، ولا يمنع ذلك من أن التفرقة ما زالت قائمة بين مختلف مفاهيم المعرفة.

ونعود من جديد ونتساءل:

ـ ما موقف الإسلام من العلم ؟

إن الله سبحانه قد رسم مهمة الرسول ﷺ فى قوله تعالى:

﴿ **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾(١).

إنها العِلْم والخُلُق: العلم إلى غاية هى« الحكمة ». والخُلُق إلى غاية هى « التزكية ».

وهذه المهمة الكريمة تبدو ـ فى وضوح ـ فى الكلمات الأولى للوحى الإلهى.. إن الوحى بدأ بقوله تعالى:

﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾(٢).

وأول كلمة فى الوحى هى « **اقْرَأْ** » وتتكرر كلمة « **اقْرَأْ** » فى هذه الآيات الأولى من الوحى.. وتتكرر مادة «العلم» ، ويذكر فيها القلم، أداة من أدوات التعليم.

ثم كان أول «قَسَم» أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ به فى القرآن الكريم، إنما هو القَسَم بالقلم وما يُسطر بالقلم، يقول تعالى:

﴿**نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة: ١٢٩.

(٢) سورة العلق: ١ـ ٥.

(٣) سورة القلم: ١.

وتتوالى الآيات الكريمة حَاثَّةً على العلم، آمرةً به، مُبَيِّنةً آدابه وشروط النبوغ فيه، مُشيدةً بالعلماء، مبيِّنةً مكانتهم.

أما هذه المكانة التى وَضع الله العلماء فيها فإنها أسمى مكانة عند الله سبحانه وتعالى لعباده.

إن الله سبحانه يقول مبيناً مكانة العلماء:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾(١).

وفى هذه الآية الكريمة قَرَنَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ العلماءَ به وبملائكته فى شهادة التوحيد، أى: وَضَعَهُمْ فى أسمى مكانة إيمانية، وذلك أن أسمى مكانة إيمانية إنما هى « شهادة التوحيد ». . إنها:

« أشهدُ أنْ لَا إلهَ إلَّا اللَّه ».

أما الحث على العلم فى القرآن الكريم فإن هذا الكتاب العزيز بيَّن أن الإنسان ـ حتى فى الحالة التى يمنحه الله فيها النبوَّة والرسالة ـ لا يزال بحاجة إلى المزيد من العلم.

إن الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يأمر الرسول ﷺ بأن يجعل من شعاراته «الاستزادة فى العلم»، فيقول له:

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران: ١٨.

(٢) سورة طه: ١١٤.

وأعلن رسول الله ﷺ أن الطريق إلى العلم هو طريق إلى الجنة . . يقول صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك :

« مَنْ سَلَكَ طريقاً يَبتغِى فِيهِ علْماً سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إلَى الجَنَّة ، وإنَّ المَلائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العلْم ؛ رِضاً بما يَصنع ، وَإنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوات ومَنْ فى الأرضِ .. حتَّى الحِيتَان فى الماء ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ على سَائرِ الكَواكِبِ ، وإنَّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأنبياء ، وإنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثوا دِيناراً ولا دِرْهَماً ، وإنَّما ورَّثوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » .

* * *

٢ـ العلم الذى يدعو إليه الإسلام

إن العلم ـ الذى يدعو إليه الإسلام ـ هو : العلم بالطبيعة ، والأحياء، والكيمياء، والطب، وغير ذلك من العلوم المادية ، وهو بالضرورة أيضاً علم الدين من تفسير وحديث وفقه . .

وإن الآية الكريمة :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١) . .

إنما وردت فى معرض الحديث عن الكونيات المادية .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾(٢) .

وما من شك فى أنه بمقدار تعمق الإنسان فى الجانب العلمى على أساس من الإيمان، وفى صدق وإخلاص، تكون خشيته لله . .

ذلك أنه يرى من نواميس الكون ، ومن الإتقان فى الخَلْق، ومن الحكمة فى التدبير ؛ ما يجعله يسجد لمبدع الكون ومنسِّقه .

وإن هؤلاء الذين يتصلون ـ مثلاً ـ بعلم التشريح من قرب، أو يتخصصون فيه ، يرون من الإحكام المُحكَم، ومن الدقة الدقيقة فى مختلف الأجهزة الجسمية، وفى مفردات هذه الأجهزة، ما يضطرهم اضطراراً إلى السجود لرب هذا التنسيق ، والترتيب ، والإبداع .

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ .

(٢) سورة فصلت : ٥٣ .

وليس علم التشريح ـ وحده ـ هو الذى يبهر العالِم المتبحِّر فيه . . وإنما يبهر علم الفلك العالم الفلكى : إنه يرى هذه النجوم ـ التى لا تكاد تُعَدُّ ـ تسير فى هذه السعة الكونية الهائلة فى ترتيب وتناسق وإحكام :

﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(١) .

وعالِم الأحياء وهو يتأمل عوالمه ، ويُفاجَأ ـ كل يوم ـ بجديد وغريب وبديع فيها .

إن هؤلاء جميعاً وغيرهم يجدون أنفسهم ـ لا محالة ـ أمام صنع الله الذى أتقن كل شىء صنعاً . . فيقولون مع « القرآن الكريم » :

﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) .

﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(٣) .

وصدق الله إذ يقول :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٤) .

---

(١) سورة يس : ٤٠ .
(٢) سورة الملك : ١ .
(٣) سورة الملك : ٢ـ ٤ .
(٤) سورة فاطر : ٢٨ .

لقد أحدث الإسلام فى الدنيا ـ بموقفه هذا من العلم ـ نهضة علمية، كان من ثمارها الحضارة الإسلامية التى كانت تسمَّى «البحث فى الطبيعة وفى الكون» هذه التسمية الجميلة:

«العلم بسنن الله الكونية».

فعلم الطبيعة ـ فى الصورة الإسلامية ـ هو العلم بسنن الله الكونية.

وقد يتساءل إنسان عما إذا كان الإسلام أطلق العلم إطلاقاً أم قيَّده بقيود؟

إن ﴿**اقْرَأْ**﴾[1] التى افتتح الله سبحانه بها وحيه الكريم قيَّدها منذ المبدأ مباشرة بأن تكون: ﴿**بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾[2].

والعلم فى الإسلام، هذا العلم بالدين وبالمادة، لا يتقيَّده فى الإسلام إلا أن يكون فى اتجاه ربَّانىٍّ.

إن الإسلام يوجب أن تكون «أسس العلم» متسمة بالخير، ويوجب أن تكون «غاياته» منغمسة فى الخير، ويجعل من العلم قُربَى إلى الله، ويجعل منه عبادة لله، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم.

ومن الملاحظات الدقيقة فى هذه الكلمات التى كانت فى افتتاح الوحى أن الله ـ سبحانه ـ لم يقل: اقرأ باسم الله، وإنما

(١، ٢) سورة العلق: ١.

قال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[1] .. أى : ﴿اقْرَأْ﴾[2] باسم المربِّى أى : ﴿اقْرَأْ﴾[3] فى إطار التربية الإلهية .

ومنذ اللحظات الأولى فى «الإسلام» اتسم العلم بالخير ، واستهدف الخير ، لم يستهدف العلم الإسلامى فى يوم من الأيام التنكيل بالإنسانية ، أو الاستعلاء ، أو التسابق من أجل إيجاد وسائل التدمير والتخريب ، كَلاَّ . وإنما هو باسم المربِّى ، وكان العلم الإسلامى من أجل ذلك ضرورة وليس تَرَفاً .

وقد يتساءل إنسان أيضاً عما إذا كانت هذه النهضة العلمية التى دَوَّتْ فى أرجاء العالم ـ منطلقة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ـ لها أثر فى النهضة الأوربية ؟

وعن ذلك نترك العالم الإنجليزى الكبير الأستاذ (بريفولت) صاحب كتاب(بناء الإنسانية) يتحدث ، وهو عالمٌ مُنصف ، أنصف الحضارة الإسلامية ، بعد أن ظلمها الغربيون قروناً متعددة . . إنه يقول :

« إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى ـ فى مدرسة أكسفورد ـ على خلفاء معلِّميه العرب فى الأندلس. وليس لروجر بيكون ـ ولا لسَمِيِّه الذى جاء بعده ـ الحق فى أن أنسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن (روجر بيكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين

(١ ـ ٣) سورة العلق : ١ .

إلى أوربا المسيحية وهو لم يملّ ـ قَطُّ ـ من التصريح بأن تَعلُّم معاصريه للغة العربية ، وعلوم العرب : هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقَّة.

والمناقشات التى دارت حول (واضعى المنهج التجريبى) هى طرف من (التحريف الهائل) لأصول الحضارة الأوربية.

وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً، وانكبَّ الناس ـ فى لهفٍ ـ على تحصيله فى ربوع أوربا » .

ويقول : « لقد كان (العلم) أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج. إن العبقرية التى ولَّدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهض ـ فى عنفوانها ـ إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سُحب الظلام. ولم يكن العلم العربى وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية » .

ويقول : «فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد ـ أوضح ما تكون ـ فى نشأة (الطاقة) التى تكوِّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهارد ـ

أى : فى العلوم الطبيعية ، وفى روح البحث العلمى » .

ويقول : « إن ما يدين به علمنا (لعلم العرب) ليس فيما قدَّموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم للثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده نفسه ؛ فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية.

وقد نظَّم أهل اليونان المذاهب ، وعمَّموا الأحكام ، ووضعوا النظريات.ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة،وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليونانى،ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدها الهلِّينى.

أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، ولطرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها أهل اليونان. وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » .

* * *

٣ـ أهداف الرسالة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اتَّبع هديه إلى يوم الدين ـ وبعد . .

فإن الإسلام حدَّد هدف الرسالة الإسلامية فى عدة آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١) .

ويذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ تفضُّله على المؤمنين بإرساله رسولاً من أنفسهم، ويحدد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الهدف من الإرسال، والحكمة منه فيقول :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٢) .

وفى سورة الجمعة يبين الله ـ سبحانه ـ أن ما فى السموات وما فى الأرض ينزِّهه سبحانه ؛ إذ إنه يسبِّح له . ويذكر سبحانه من صفاته : الملك، القدوس، العزيز، الحكيم . . ثم يقول :

---

(١) سورة الجمعة : ٢ .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٤ .

﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وهذه الآيات الكريمة ، وما يشبهها من القرآن الكريم، لا تحتاج إلى تأمل بالغ ،أو تفكير مجهد، من أجل فهم معانيها، وذلك أن المعنى فى هذه الآيات الكريمة واضح كل الوضوح، فهى تبين أن الحكمة فى إرساله ﷺ تتمثل فى أمرين :

١ـ العلم.

٢ـ التزكية.

العِلْم ـ إذن ـ فى الرسالة الإسلامية : شطرها، بل هو شطرها الأساسى، أى : الشطر الذى تقوم عليه التزكية، إذ لا يتأتى أن تقوم التزكية على الجهل .

نشأ الإسلام حليفاً للعلم:

ولعل مما يبين الأهمية الكبرى التى منحها الإسلام للعلم أن نرجع بنظرة سريعة إلى اللحظات الأولى التى أشرق فيها فجر الرسالة الإسلامية .

روى الإمام البخارى ـ نضَّر الله وجهه ـ بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وروت كتب السنة كذلك، حديث بدء الوحى .

وهو حديث طويل، وفيه أن رسول الله ﷺ ، بينما كان فى غار حراء يتعبد، جاءه المَلَك، فقال : « **اقرأْ** ».

---

(١) سورة الجمعة : ٢ .

قال : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذنى فغَطَّنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « **اقرأ** » .

قلت : ما أنا بقارئ .

فأخذنى فغطَّنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « **اقرأ** » .

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطَّنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] .

وحينما فسَّر المرحوم الشيخ محمد عبده هذه الآيات عقَّب عليها قائلاً :

« لا يوجد بيان أبرع ، ولا دليل أقطع ، على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى بهذه الآيات الباهرات » .

لقد افتتح الله ـ سبحانه ـ الوحى فى الدين الإسلامى بهذه الآيات المعجزة الخالدة ، التى تذكر القراءة والكتابة والقلم ، والتى ترددت فيها مادة العلم أكثر من مرة .

وبعد أن نزلت هذه الآيات الكريمة ، نزل قوله تعالى :

---

(١) سورة العلق : ١ ـ ٥ .

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1].

وفى هذه المرة الثانية من الوحى بدأ الله سبحانه بحرف من حروف الهجاء، وأقسم بالقلم، والكتابة، فكان أول قَسَم فى القرآن هو القَسَم بالقلم وما يُسطر بالقلم.

أما اسم الكتاب الموحَى به، فإنه: «**القرآن**».

يقول الراغب الأصفهانى:

« **قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لا لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار ـ تعالى ـ إليه بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، وقوله: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[3]**» .

والقرآن بتسميته.. وبأول آية نزلت منه.. وبأول قَسَم فيه:

يوجِّه الإنسان بطريق مباشر، وبطريق إيحائى، إلى الاتجاه نحو المعرفة: قراءةً وكتابةً وعلماً.

* * *

(١) سورة القلم: ١.
(٢) سورة يوسف: ١١١.
(٣) سورة النحل: ٨٩.

٤ ـ منزلة العلم فى الإسلام
عن طريق القصص

لقد نشأ القرآن حليفاً للعلم، وأشرق نوره مبشِّراً بالعلم، وأخذ القرآن ـ فيما بعد ـ يوالى الحث على العلم ؛ بشتى الأساليب :

فيبيِّن لنا مثلاً أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق آدم عليه السلام علَّمه الأسماء كلها : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(١).

ثم يبيِّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن آدم ، بهذه المعرفة ؛ أصبح أسمى من الملائكة، ويقول فى ذلك :

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾(٢).

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣).

ولم يكن للملائكة علم بها، فأجابوا فى تواضع :

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(٤).

وبيَّن لهم سبحانه مكانة آدم ـ بصورة غير مباشرة ـ حينما قال :

﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾(٥).

(١ ـ ٣) سورة البقرة: ٣١ .

(٤) سورة البقرة: ٣٢.

(٥) سورة البقرة: ٣٣ .

صدع آدم بالأمر، وبيَّن الله سبحانه وتعالى النتائج حينما أنبأهم آدم بأسمائهم، فقال:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(١).

ومن الأمور التى لها مغزاها الواضح، والتى نشير إليها، ولا نتعمق فيها: أن الله سبحانه وتعالى قال بعد ذلك مباشرة:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

لقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمره للملائكة بالسجود لآدم بعد أن بيَّن لهم أن آدم أعلم منهم . . واستجاب الملائكة للأمر فسجدوا.

فكأن السياق يوحى بسموٍّ مكانة العلم سموّاً يصل إلى درجة سجود الملائكة له.

وقصة أخرى ثرية بالمغزى والمعنى والحكمة:

إن رسل الله تعالى ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فى الذروة من المكانة والفضل، وفى الذروة من العلم والحكمة . . . ومع ذلك فها هو ذا موسى ـ عليه السلام ـ يجدُّ فى السير هو وفتاه من أجل البحث عن علم أنبأه الله بوجوده، وبعد جهد وصبر وجداه . . يقول سبحانه:

---

(١) سورة البقرة: ٣٣ .

(٢) سورة البقرة: ٣٤ .

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾(١).

ويسيران، ويتعلم موسى رسول الله ـ عليه السلام ـ من صاحبه ما لم يكن يعلم، ومما أفادته هذه القصة ـ كما يقول البيضاوى ـ أن يداوم المرء على التعلم، ويتذلل للمعلِّم، ويراعى الأدب فى المقال.

ويأخذ منها السيوطى:

« استحباب الرحلة فى طلب العلم، واستزادة العالم من العلم، واتخاذ الزاد للسفر، وأنه لا ينافى التوكل، ونسبة النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازاً وتأدباً عن نسبتهما إلى الله تعالى، وتواضع المتعلم لمن تعلَّم منه ـ ولو كان دونه فى المرتبة ـ واعتذار المعلِّم إلى من يريد الأخذ عنه فى تعليمه ما لا يحتمله طبعه، وتقديم المشيئة فى الأمور، واشتراط المتبوع على التابع، وأنه يلزم الوفاء للشروط، وأن النسيان غير مؤاخذ به ».

وقصة ثالثة نذكرها لننتهى بها من الحديث فى العلم عن طريق

---

(١) سورة الكهف: ٦٥ ـ ٧٠.

القصص القرآنى ، ولنتجه بعدها إلى الأسلوب القرآنى المباشر ، ثم إلى السُّنَّة النبوية الشريفة .

ها هو ذا سليمان عليه السلام ، يجلس بين أصفيائه ويتحدث معهم عن ملكة سبأ وعن عبادتها للشمس من دون الله ، وعن ردِّه للهدية التى أرسلتها إليه ملكة سبأ تريد بذلك أن يغضَّ الطرف عنها وعن زيغها وضلالها ، قائلاً حين ردَّها :

﴿ **أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ** ﴾(١) .

﴿ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾(٢) .

ثم يلتفت سليمان إلى من حوله قائلاً :

﴿ **يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾(٣) .

فردَّ عليه عفريت من الجن قائلاً :

﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** ﴾(٤) . .

وأجاب شخص آخر يصور القرآن إجابته على الوضع التالى :

﴿ **قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾(٥) .

(١ـ ٥) سورة النمل : ٣٦ - ٤٠ .

ونَفَّذ الذى عنده علم من الكتاب ما قال، وجاء بالعرش فى لمح البصر.

فلما رأى سليمان العرش مستقراً عنده قال:

﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

والقرآن يعرِّفنا بهذه القصة أن العلم يفعل الأعاجيب، وأنه يفعل ما لا تفعله الجن.. وأن مقدرة «العَالِم» تصل إلى ما لم تصل إليه مقدرة «عفريت الجن».. وأنه بالعلم تُطوى الأرض، وتزول المسافات، وتتحقق المعجزات.

* * *

(١) سورة النمل: ٤٠.

٥ ـ الطريق المباشر لبيان
مكانة العلم فى الإسلام

والآن نأتى إلى موقف القرآن من العلم عن طريق مباشر، أى: من خلال الآيات التى تتحدث عن العلم حاثة عليه مشيدة به.

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

إنه بمقدار تعمق الإنسان فى الجانب العلمى ـ فى صدق وإخلاص ـ تكون خشيته لله تعالى؛ ذلك أنه يرى من نواميس الكون، ومن الإتقان فى الصنع، ومن الحكمة فى التدبير، ما يجعله ساجداً لمبدعه ومنسِّقه.

وإن هؤلاء الذين يتصلون مثلاً بعلم التشريح من قرب أو يتخصصون فيه، يرون من الإحكام المحكم، ومن الدقة الدقيقة فى مختلف الأجهزة الجسمية وفى مفردات هذه الأجهزة ما يضطرهم اضطراراً إلى السجود لرب هذا التنسيق، والترتيب، والإبداع.

وليس علم التشريح وحده هو الذى يبهر العالِم المتبحر فيه، وإنما يبهر علم الفلك العالِم الفلكى، ويبهر علم الأحياء عالِم

(١) سورة فاطر: ٢٨.

الأحياء، وهكذا نجد انبهاراً فى كل ميدان من ميادين المعرفة الكونية: أرضها وسمائها، وما بين الأرض والسماء:

﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(١).

وصدق الله سبحانه إذ يقول:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٢).

وخشية الله التى هى ثمرة العلم أساس من أهم أسس إسلام الوجه لله، ومن هنا كانت ضرورة العلم فى الإسلام.. إنه ضرورة وليس ترفاً، فهو من أسس الإسلام نفسه.

ومن أجل ذلك كان من مقومات شخصية المسلم «العلم».. العلم بالكون، وبالإنسان، وبالنفس، وبكل ما تتسع له الكلمات من معنى كريم.

* إلام تؤدى الخشية؟

* إلام ينتهى العلماء الصادقون المؤمنون؟

يقول الله تعالى:

---

(١) سورة الملك: ١ـ ٤.

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

إنهم يصلون - عن طريق العلم الذى يثمر الخشية - إلى التوحيد . .

التوحيد الذى هو سمة الدين الإسلامى - كما يرى البيرونى - والذى هو فى حقيقة الأمر سمة التدين الصادق .

ويشهد العلماء « التوحيد » مع الله سبحانه ، ومع الملائكة الأطهار . إن الله سبحانه قرن العلماء به وبملائكته فى شهادة التوحيد ، وهذا أسمى ما يمكن أن يصل إليه تكريم العلماء من مكانة .

وشهادة التوحيد التى هى قمة الركن الأول للإسلام ، وهو :

« **أشهد أنْ لَا إلهَ إلاَّ اللَّه وأشهد أنَّ محمداً رسولُ اللَّه** » . . لا يشهدها إلا العلماء المؤمنون .

وشهادة التوحيد التى هى منتهى ما يمكن أن يصل إليه السالك فى معراجه إلى الله سبحانه لا تتحقق إلا فى العلماء المؤمنين .

إن شهادة التوحيد هذه قد وجَّه الله الأنظار إليها بأساليب شتَّى ، ومن هذه الأساليب ما لا يقدِّره - فى دقته وروعته الرائعة - إلا العلماء .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١).

ثم يعقِّب الله على الآيات بأنه مهما بلغ العلماء بعلمهم، فإن المجهول كثير، وأنه لا يعلم هذا المجهول المغيَّب إلا الله سبحانه، والتعقيب الكريم معناه أن العلم لا ينتهي إلى غاية، وأن كشف المجهول رسالة لا تنتهي ما دامت السموات والأرض، فيقول سبحانه:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢).

---

(١) سورة النمل: ٥٩ ـ ٦٤.

(٢) سورة النمل: ٦٥.

ومن أجل شهادة التوحيد، أو من أجل وصول الإنسانية إلى أقصى ما ينتهى إليه ـ بالنسبة للإنسانية: كلٌّ بحسب استطاعته ـ فى معارج القدس، حثَّ الإسلام على العلم ووجَّه إليه، وجعله من أسس الدين نفسه.

لقد حَثَّ عليه فى صور بلغت من الروعة حَدّاً لا يُجَارَى.

والآيات والأحاديث التى وجَّهت الأمة الإسلامية إلى العلم كثيرة مستفيضة، وإذا كان العلماء يشهدون التوحيد مع الله ومع الملائكة، فإن منزلتهم بالمكان السامى، ودرجاتهم سامية، فى الرفعة والعلو:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١).

ولهذه الجوانب من فضل العلم والعلماء، أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ـ وهو قدوة المسلمين وأسوتهم ـ أن يقول:

﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٢).

رب زدنى علماً فى كل يوم، بل فى كل لحظة، ذلك ما يجب أن يكون شعار المسلم، وإذا ما ازداد المسلم علماً ازداد خشيةً، وإذا ما ازداد خشيةً تحقق فيه إسلام الوجه لله على صورة أكمل.

ومن الملاحظات التى يجب أن تكون دائماً فى الذاكرة، أن الكلمة الأولى التى نزل بها الوحى على المصطفى ﷺ، مبشِّرة بعهد من النور جديد، هى كلمة: «اقرأ».

---

(١) سورة المجادلة: ١١.
(٢) سورة طه: ١١٤.

مكانة العلم فى السنة النبوية الشريفة:

ونأتى الآن إلى موقف مَنْ أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نتخذه أسوة :

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(١).

لنأتِ الآن ؛ لنتبين موقف رسول الله ﷺ من العلم :

عن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ نَفَّسَ عن مؤمن كُرْبةً من كُرَب الدنيا نَفَّسَ اللَّهُ عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة ، ومَنْ سترَ مسلماً سَتَرَهُ اللَّهُ فى الدنيا والآخرة، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه فى الدنيا والآخرة ، واللَّهُ فى عَون العبد ما دام العبدُ فى عَون أخيه ، ومَنْ سَلَكَ طريقاً يلتمسُ فيه علماً سَهَّلَ اللَّهُ له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمعَ قومٌ فى بيت من بيوت اللَّه يَتْلُونَ كتابَ اللَّه ويتدارسونه بينهم إلا حَفَّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السَّكينة، وغشيتهم الرحمة، وذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عنده، ومَنْ أبطأ بهِ عَمَلُهُ لم يُسْرِعْ بهِ نَسَبُهُ »(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام :

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

(٢) رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبَّان فى صحيحه ، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

« إنَّ مَثَلَ العُلَمـاء فى الأرضِ كَمَثَـلِ النُّجُومِ يُهْتَـدَى بهَا فى ظُلُمَات البَـرِّ والبَحْـرِ . فإذا انطمستِ النُّـجومُ : أوشَكَ أنْ تضلَّ الهُدَاة »[1] .

وعن كثير بن قيس ، قال : كنت جالساً مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق ، فجاء رجل فقال : يا أبا الدرداء ، إنى جئتك من مدينة الرسول ﷺ ، ما جئت لحاجة . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« مَنْ سَلَكَ طريقـاً يطلبُ فيـه علْماً ، سَلَكَ اللَّهُ به طريـقاً منْ طُرقِ الجَنَّة ، وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَـها رِضاً لطالبِ العلْم ، وإنَّ العَـالمَ يَسْـتَـغْـفـرُ له مَنْ فى السَّـمـوات ومَنْ فى الأرضِ والحيتانُ فى جَوْفِ الماء ، وإنَّ فَـضْلَ العَالمِ عَلَى العابدِ كفضل القَمَرِ ليلةَ البَدْر عَلَى سَائر الكَواكب،وإنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لـم يُوَرِّثوا ديناراً ولا درْهَماً ، وإنما ورَّثوا العلْمَ ، فَمَنْ أخَذَهُ أخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[2] .

وعن أبى أمامة الباهلى قال : ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالم ، فقال رسول الله ﷺ :

« فَضْلُ العَالمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِى عَلَى أدْنَاكُم » .

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه أحمد ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والدارمى ، وسمَّاه الترمذى : قيس ابن كثير .

ثم قال رسول الله ﷺ :

«إنَّ اللَّهَ ومَلائكتَهُ، وأهلَ السَّموات والأرض، حتَّى النَّملة فى جُحرها، وحتَّى الحُوت، لَيُصَلُّونَ على مُعلِّمِ الناسِ الخيرَ» (١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إنَّ اللَّهَ ـ عزَّ وجَلَّ ـ أَوْحَى إلىَّ أنه مَنْ سَلَكَ مَسْلَكاً فى طَلَبِ العِلْم ، سَهَّلْتُ له طريقَ الجَنَّة ، ومَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْه أَثَبْتُهُ عليهما الجَنَّة ، وفَضْلٌ فى عِلْمٍ خيرٌ مِنْ فَضْلٍ فى عِبَادَةٍ، وَمَلاَكُ الدِّينِ الوَرَع» (٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«مَنْ خَرَجَ فى طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فى سَبيلِ اللَّه حتَّى يَرْجِع»(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«لا حَسَدَ إلا فى اثنتين:رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالاً فسلَّطه على هلكته فى الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ الحكمةَ فهو يَقْضِى بِها ويُعلِّمها»(٤).

وعن عون قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

«مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَان : صَاحِبُ العِلْم ، وصَاحِبُ الدنيا ، ولا يَستويان . أما صاحبُ العلم فيزدادُ رضاً للرحمن ، وأما صاحبُ الدنيا فيَتمادى فى الطغيان» . ثم قرأ عبد الله :

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح . (٢) رواه البيهقى فى «شعب الإيمان».
(٣) رواه الترمذى والدارمى . (٤) متفق عليه .

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾(١).

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا﴾(٢)»(٣).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إذا مَاتَ الإنسانُ انقطعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا منْ ثلاثة:

إلاَّ منْ صَدَقةٍ جَارية، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بهِ، أو وَلَدٍ صَالحٍ يَدعو له » (٤).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ مِمَّا يلحقُ المؤمنَ مِنْ عَمَلِهِ وحَسَنَاتِهِ بعدَ موتِهِ: عِلْماً عَلَّمَهُ ونَشَرَهُ، وولداً صالحاً تَرَكَهُ، ومُصْحَفاً ورَّثه، أو مسجداً بَناه، أو بيتاً لابن السَّبيل بَناه، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أَخْرَجَهَا منْ مالهِ فى صحتهِ وحياتهِ. يلحقهُ منْ بعدِ موته»(٥).

وعن صفوان بن عسال المرادى رضي الله عنه، قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد مُتَّكئ على بُرْدٍ له أحمر، فقلت له: يا رسول الله، إنى جئت أطلب العلم. فقال:

« مَرْحَباً بطَالبِ العلْم، إنَّ طالبَ العلْمِ تَحُفُّهُ المَلاَئكَةُ بأجْنحَتها، ثُمَّ يركبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً حتَّى يَبْلُغوا السَّمَاءَ منْ مَحَبَّتهمْ لمَا يطلبُ » (٦).

---

(١) سورة العلق: ٦، ٧.
(٢) سورة فاطر: ٢٨.
(٣) رواه الدارمى.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه ابن ماجه، والبيهقى فى «شعب الإيمان».
(٦) رواه أحمد، والطبرانى بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وعن أبى هريرة ﷺ، أن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال:

« **أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ المَرْءُ المُسْلِمُ عِلْماً ثُمَّ يُعَلِّمَهُ أَخَاهُ المُسْلِمَ** »(١).

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« **مَثَلُ عِلْمٍ لا يُنْتَفَعُ بِهِ كَمَثَلِ كَنْزٍ لا يُنْفَقُ مِنْهُ فى سَبِيلِ اللهِ**»(٢).

العلم الذى يدعو إليه القرآن والحديث:

وقد يظن بعض الناس أن العلم الذى يدعو إليه القرآن إنما هو العلم بالدين، أى: العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والعلم بالفروض الدينية من صلاة وصيام وزكاة وحج، والعلم بالقانون الأخلاقى والتشريع الإلهى.

والواقع أن العلم بالدين: عقيدةً وأخلاقاً وتشريعاً؛ مما يحث عليه الإسلام، بل هو فى المرتبة الأولى، لأن الإيمان هو الأساس فى كل دعوة دينية منذ أن كان الدين.

ومعرفة الإنسان بالله وصلته بالله عن طريق رسله، هى أسمى معرفة بالنسبة للإنسان باعتباره فرداً، وبالنسبة لأمن المجتمع وطمأنينته على الدماء والأموال والأعراض.

---

(١) رواه ابن ماجه بإسناد حسن، من طريق الحسن ـ أيضاً ـ عن أبى هريرة.

(٢) رواه أحمد، والدارمى.

بيد أنه إذا كانت المعرفة بالله عن طريق رسله لها الصدارة فى الأجواء الدينية، فإن القرآن بيَّن لنا أن الكون كله هو كتاب للعلم بالله سبحانه وتعالى. إنه مجموعة من النواميس الإلهية التى يؤدى اكتشافها إلى زيادة المعرفة بالله وزيادة الخشية منه.

وتَأمَّلْ معى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (١).

لقد أتى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢)..

فى معرض الحديث عن تنسيق العالم المادى وترتيبه والإبداع فيه.

لقد دفع القرآن المسلمين دفعاً إلى مختلف مجالات المعرفة فى الكون.. لقد دفعهم إلى مجال المعرفة بالتاريخ الذى يسميِّه « أيام الله »... أيام الله التى أنعم فيها على من اتَّبع هديه واستقام على أمره، ودمَّر فيها من سار فى طريق المعصية والشر. أيام الله التى نصر فيها أولياءه، وخذل فيها أعداءه:

(١) سورة فاطر: ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة فاطر: ٢٨.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ (٢).

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ (٣).

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٤).

ودفعهم إلى المعرفة بالفلك حينما أقسم ببعض الكواكب مشيراً إلى منزلتها بهذا القَسَم، وحينما أقسم بمواقع النجوم، والقَسَم بمواقع النجوم فيه ما فيه من بعث للتأمل والتدبر والبحث.. يقول سبحانه:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾(٥).

ويقول سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (٦).

---

(١) سورة العنكبوت: ٢٠.
(٢) سورة الروم: ٤٢.
(٣) سورة غافر: ٢١.
(٤) سورة الأنعام: ٦.
(٥) سورة الواقعة: ٧٥، ٧٦.
(٦) سورة النجم: ١.

ويبيِّن ـ سبحانه ـ أنه ربُّ الشِّعرى :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ (١) .

ويتحدث سبحانه عن النظام الدقيق الذى تسير عليه الأفلاك :

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٢) .

ويبيِّن ـ سبحانه ـ الدقة فى الصنع :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (٣) .

وهذه النجوم والأفلاك التى أقسم الله بها ، وأقسم بمواقعها ، أعلن ـ سبحانه وتعالى ـ أنه سَخَّرها لنا ، وامتنَّ ـ سبحانه وتعالى ـ علينا بتسخيرها . .

يقول سبحانه :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النجم : ٤٩ .
(٢) سورة يس : ٤٠ .
(٣) سورة الملك : ١ ـ ٤ .
(٤) سورة إبراهيم : ٣٣ .

ويقول تعالى فى سورة النحل :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٢) .

والمعنى الذى أحبه الله سبحانه وتعالى من وراء بيان ذلك ، ومن امتنانه، هو أن يصل الإنسان الى اكتشاف قوانينها، إلى تسخيرها، إلى السيطرة عليها، إلى امتلاكها .

وإنه لمن الجهل أن يتحدث إنسان عن غزو الفضاء ،وعن الوصول إلى القمر، ليقول : إن الإسلام يعارض ذلك .

إنه من الجهل بالإسلام أن يقول إنسان ذلك، فقد أنزل القرآن الكواكب منزلتها بينما كان الآخرون يقدّسونها، بل ويعبدونها . . يقول سبحانه لهؤلاء الذين سجدوا لها وعبدوها :

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾(٣) .

إنها مخلوقات، الله ربُّها، وكما أنه ـ سبحانه ـ ربُّ الشِّعرى،

---

(١) سورة النحل: ١٢ .

(٢) سورة لقمان: ٢٩ .

(٣) سورة فصلت: ٣٧ .

فإنه ربُّ كل كوكب وربُّ كل نجم ، وكما أنه خلق الشمس والقمر ، فهو الخالق لكل السموات التى زيَّن السماء الدنيا منها بزينة الكواكب .

وكما دفع القرآن المسلمين إلى التعرف على « أيام الله » وكما دفعهم إلى النظر والتأمل والبحث فى النجوم والكواكب ، فإنه دفعهم - على وجه العموم - إلى البحث والنظر والتأمل فى الكون كله ، والآيات القرآنية فى هذا المجال تتعاون وتتناسق لتوجِّه الإنسان إلى التنقيب فى جميع مجالات الكون لاكتشاف نواميس الله فى كتابه هذا المنظور . . يقول سبحانه :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢) .

ويذكر الله سبحانه وتعالى - فى أوائل سورة الرعد - ما يلى :

---

(١) سورة البقرة: ١٦٤ .

(٢) سورة آل عمران: ١٩٠ .

﴿الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١).

ويمتنُّ الله سبحانه وتعالى على الإنسانية أجمع بآياته الباهرة، ضارباً المثل للعقلاء المستبصرين، ليتجهوا بالبحث والدراسة إلى ما وجَّههم سبحانه نحوه.. يقول سبحانه:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

(١) سورة الرعد: ١ ـ ٤.

وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

ولقد سخر الله ـ سبحانه وتعالى ـ البحر . . يقول سبحانه:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (٢).

ويقول تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة الروم: ١٧ـ ٢٧.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٢.

تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

ويقول سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٢).

وينتهى الأمر فى القرآن، بأن الله سبحانه وتعالى سَخَّر الكون كله للإنسان.

يقول سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٣).

ويقول سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (٤).

ويقول تعالى:

---

(١) سورة النحل: ١٤، ١٥.
(٢) سورة لقمان: ٣١.
(٣) سورة لقمان: ٢٠.
(٤) سورة ق: ٦ـ ١١.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1]؟ .

ومعنى هذا كله : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوجِّه نظر الأمة الإسلامية إلى دراسة كتابه المرئيِّ . . إنه سبحانه يوجِّه نظرها إلى البحث فى الآفاق على مختلف أوضاعها . . إنه سبحانه يوجِّه نظرها إلى البحث فى الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2] .

* * *

(١) سورة الغاشية: ١٧ـ ٢٠ .

(٢) سورة فصلت: ٥٣ .

٦ـ عن فضل العلم الدينى

ومع ذلك فإنه إذا كنا قد تحدثنا للآن ـ فى الأغلب الأعم ـ عن العلم فى مجاله الكونى، أى: فى مجاله المادى المحسوس.

وإذا كانت الأحاديث السابقة فى «فضل العلم» على وجه العموم، فإنه مما لا مرية فيه أن العلم الدينى خاصة قد وردت فيه أحاديث كثيرة أيضاً..

وأن ما نذكره هنا فيما سبق فى العلم على وجه العموم، أو فى العلم الدينى خاصة، لا يحيط بكل ما ورد فى فضل العلم، وإنما نذكر غيضاً من فيض:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

« أقربُ الناسِ مِنْ دَرَجةِ النبوَّةِ: أَهْلُ العِلْمِ وأَهْلُ الجِهَادِ، أَمَّا أهلُ العِلْمِ فَدَلُّوا الناسَ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل، وأَمَّا أهلُ الجِهَادِ فَجَاهَدُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل »(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« مَا اجْتَمَعَ قَومٌ فى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّه، يَتْلُونَ كتابَ اللَّه، ويَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَينهم، إلاَّ نزلتْ عَلَيهِمُ السَّكِينةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وحَفَّتْهُمُ المَلاَئِكَةُ، وذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »(٢).

---

(١) رواه أبو نعيم، والجو الإسلامى كله يؤيده.

(٢) رواه مسلم، وأبو داود، وغيرهما.

وعن معاوية، قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خيرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّين، وإنَّمَا أنا قَاسِمٌ واللَّهُ يُعْطِى »(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ عَبْدٍ سَمِعَ مَقالتى فَحفظَهَا وأدَّاها، فرُبَّ حَامِلِ فقْهٍ غيرُ فَقِيه، ورُبَّ حَامِلِ فقْهٍ إلى مَنْ هو أفْقَهُ منه، ثلاثٌ لا يُغِلُّ عليها قلبُ مسلم: إخْلَاصُ العَمَلِ للَّه، والنَّصِيحَةُ للمُسْلِمِين، ولزومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ »(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«فَقِيهٌ واحدٌ أشدُّ عَلَى الشَّيطانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ »(٣).

وعن سفيان أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب:

« مَنْ أربابُ العِلْم ؟ . قال: الذين يعملون بما يعلمون . قال: فما أخرجَ العلمَ من قلوب العلماء ؟. قال: الطمع »(٤).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الشافعى، والبيهقى فى المدخل.

(٣) رواه الترمذى، وابن ماجه.

(٤) رواه الدارمى.

فيما أعلم عن رسول الله ﷺ، قال:

«إنَّ اللَّهَ - عَزَّ وجلَّ - يَبْعَثُ لهذه الأُمَّةِ عَلَى رأسِ كلِّ مائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[1].

من آداب العلماء:

ولقد حذر رسول الله ﷺ العلماء، وأنذرهم، وبيَّن لهم آداباً من آداب العلم والعلماء كثيرة، منها ما يلي:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

«يَا أَيُّها النَّاسُ مَنْ عَلِمَ شيئاً فليقُلْ بهِ، ومَنْ لَمْ يعلمْ فليقلْ: اللَّهُ أعلم. فإنَّ منَ العِلْمِ أنْ تقولَ لِمَا لا تعلم: اللَّهُ أعلم. قال اللَّهُ تعالى لنبيه:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2]**»**[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ أُناساً مِنْ أُمَّتِي يَسْتَفْقِهُونَ فِي الدِّينِ، ويَقْرَأونَ القُرآنَ، ويَقُولُونَ: نَأْتِي الأُمَرَاءَ فَنُصِيبُ مِنْ دُنْيَاهُمْ ونَعْتَزِلُهُمْ بِدِينِنَا، ولا يكونُ ذلكَ، كَمَا لا يُجْتَنَى مِنَ القَتَادِ إلَّا الشَّوْكُ، كذلكَ لا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِهِمْ إلَّا الخَطَايَا».

وقال عمر رضي الله عنه لأحد الصحابة:

«هل تَعرفُ ما يَهْدِمُ الإسْلَامَ؟. قال: قلت: لا. قال: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ العَالِمِ، وجِدالُ المُنَافِقِ بالكتابِ، وحُكْمُ الأئِمَّةِ المُضِلِّين»[4].

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) سورة ص: ٨٦.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه الدارمي.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ ، أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نارٍ»(١).

الصحابة والحث على العلم:

ولقد تابع المسلمون القرآن والحديث الشريف فى الحث على العلم، ونكتفى فى هذا بما قاله سيدنا معاذ بن جبل ﷺ..

روى الإمام الغزالى فى «الإحياء» قال:

عن معاذ بن جبل ﷺ - ورأيته مرفوعًا - قال:

« تَعلَّموا العِلْمَ ، فَإنَّ تَعلُّمَهُ للَّه خشيةٌ ، وطَلَبَهُ عِبَادةٌ ، ومُذَاكرتَهُ تَسبيحٌ ، والبحثَ عنه جِهَادٌ ، وتعليمَهُ لمنْ لا يعلمُهُ صَدَقةٌ ، وبَذْلَهُ لأهله قُربةٌ ، لأنَّهُ مَعالمُ الحَلال والحَرام ، ومَنارُ سُبُلِ أهلِ الجَنَّة ، وهو الأنيسُ فى الوَحْشَة ، والصَّاحبُ فى الغُربة ، والمُحَدِّثُ فى الخَلْوَة ، والدَّليلُ عَلَى السَّرَّاء والضَّرَّاء ، والسِّلاحُ عَلَى الأعْدَاء ، والزَّينُ عندَ الأخِلاَّء ، ويرفعُ اللَّهُ به أقواماً ؛ فَيَجْعَلُهُمْ فى الخَيْرِ قَادةً ؛ تُقْتَفَى آثارُهُمْ ، ويُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ ، ويُنْتَهَى إلى رَأيِهِمْ ، تَرغبُ المَلائكَةُ فى خُلَّتِهِمْ ، وبأجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ ، ويَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كلُّ رَطْبٍ ويَابِسٍ ، وحِيتَانُ البَحْرِ وهَوامُّهُ ، وسِبَاعُ البَرِّ وأنْعَامُه ، لأنَّ العِلْمَ حياةُ

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى.

القلوبِ مِنَ الجَهْل ، ومَصابيحُ الأبْصَـار مِنَ الظُّلَم ، يبلغُ العَبْدُ بالعلْمِ منازلَ الأخْـيَارِ والـدَّرَجَات العُـلاَ فى الدُّنيا والآخـرَة ، والتفكيرُ فيه يَعْدلُ الصِّيامَ، ومُدَارسَتُهُ تَعْدلُ القيامَ، به تُوصَلُ الأرْحَـامُ ، وبه يُعْرَفُ الحَـلالُ مِنَ الحَـرَام ، وهو إمَامُ العَـمَل ، والعَمَلُ تَابِعٌ ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ ، ويُحْرَمُهُ الأشْقِيَاءُ » .

* * *

٧ـ الثمرة التى أدّى إليها
الحثّ على العلم

وكانت نتيجة ذلك كله أن اندفع المسلمون إلى البحث فى جميع ميادين الحياة، روحية كانت أو عقلية أو مادية، ونشأ ـ عن ذلك ـ الحضارة الإسلامية التى أنتجت أمثال: جابر بن حيان فى الكيمياء، وابن الهيثم فى الطبيعيات، وأبى بكر الرازى فى الطب، وابن سينا فى الطب كذلك والفلسفة، والغزالى فى الجانب الروحى، وابن رشد فى الفلسفة العقلية، وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ، والخوارزمى فى الجبر، وكثيرين غيرهم.

ونضرب الآن بعض الأمثلة على ما وصل إليه علماء الإسلام من مكانة مرموقة..

الكندى:

يقول دى بور عن الكندى فى دائرة المعارف الإسلامية:

« إن كوردان ـ وهو فيلسوف من فلاسفة النهضة ـ يَعُدُّ الكندى واحداً من اثنى عشر، هم أنفذ الناس عقلاً، وإنه كان فى القرون الوسطى يعتبر واحداً من ثمانية، هم أئمة العلوم الفلكية ».

والطريف فى حياة الكندى، أنه كان يجرى الكثير من التجارب حتى تقوم معرفته ـ فى الميدان التجريبى ـ على أساس سليم.

وأنه كان يعرف الموسيقى نظرياً وعملياً، ويمزج الموسيقى بالطب فى أمر العلاج.

ويحكى عنه فى هذا الميدان حكاية طريفة، وسواء أصَحَّتْ أم لم تصحّ، فإنها تدل على أساس من معرفة الكندى بالموسيقى وبالطب، ومن مزج بينهما.

روى صاحب كتاب « أخبار الحكماء»:

« وقد ذكروا من عجيب ما يحكى عن يعقوب بن إسحاق الكندى هذا: أنه كان فى جواره رجل من كبار التجار، مُوسَّع عليه فى تجارته، وكان له ابن قد كفاه أمر بيعه وشرائه وضبط دخله وخرجه. وكان ذلك التاجر كثير الإزراء على « الكندى » والطعن عليه مدمناً لتعكيره والإغراء به فعرض لابنه سكتة فجأة، فورد عليه من ذلك ما أذهله، وبقى لا يدرى ما الذى له فى أيدى الناس وما لهم عليه، مع ما دخله من الجزع على ابنه، فلم يدع بمدينة السلام طبيباً إلا ركب إليه، واستركبه لينظر ابنه ويشير عليه من أمره بعلاج، فلم يجبه كثير من الأطباء - لكبَر العلَّة وخطرها - إلى الحضور معه، ومن أجابه منهم فلم يجد عندَه كبير غَناء.

فقيل له: أنت فى جوار فيلسوف زمانه، وأعلم الناس بعلاج هذه العلَّة، فلو قصدته لوجدت عنده ما تحب.

فدعته الضرورة إلى أن يحمل على« الكندى» بأحد إخوانه: فثقل عليه فى الحضور فأجاب وسار إلى منزل التاجر فلما رأى

ابنه، وأخذ مجلسه، أمر بأن يحضر إليه مع تلامذته فى علم «الموسيقى» ومن قد أتقن الحِذْق بضرب العود، وعرف الطرائق المحزنة المزعجة، والمقوية للقلوب والنفوس فحضر منهم أربعة نفر فأمرهم أن يديموا الضرب عند رأسه، وأن يأخذوا فى طريقة أوقفهم عليها، وأراهم مواقع النغم بها من أصابعهم على «الدساتين» ونقلها.

فلم يزالوا يضربون فى تلك الطريقة، و«الكندى» آخذٌ مجسَّ الغلام وهو فى خلال ذلك يمتدُّ نَفَسُهُ ويَقْوَى نَبْضُهُ، ويرجع إليه نَفَسُهُ شيئاً بعد شىء إلى أن تحرَّك، ثم جلس وتكلم، وأولئك يضربون فى تلك الطريقة دائماً لا يفترون.

فقال «الكندى» لأبيه: سل ابنك عن علم ما تحتاج إلى عمله، مما لك وعليك وأثبته، فجعل الرجل يسأله وهو يخبره، ويكتب شيئاً بعد شىء.

فلما أتى على جميع ما يحتاج، غفل الضاربون عن تلك الطريقة التى كانوا يضربونها وفتروا، فعاد الصبى إلى الحال الأولى وغَشِيَهُ السُّكات؛ فسأله أبوه أن يأمرهم بمعاودة ما كانوا يضربون به، فقال:

هيهات، إنما كانت صبابةٌ قد بقيت من حياته، ولا يمكن فيها ما جرى، ولا سبيل لى ولا لأحد من البشر إلى الزيادة فى مدة من قد انقطعت مدته؛ إذ قد استوفى العطية والقسم الذى قسم الله له».

ابن الهيثم:

وقد كان ابن الهيثم يتخير الأماكن التى يجرى فيها تجاربه فى الضوء ثم وضع كتابه عن تجربة، ولقد كان كتابه مصدر الإلهام لكثير من علماء الغرب، فى أبحاثهم عن الضوء والحرارة.

وعن ابن الهيثم يقول سارتون: إنه من أكبر الباحثين فى علم البصريات(الضوء) فى جميع الأزمان.

ابن النفيس:

إن الغرب يشيد بـ« هارفى » باعتباره مكتشف الدورة الدموية، وينسى الغرب أو يتناسى ما قام به ابن النفيس من تجارب ومن ملاحظات واختبارات وصل على أساس منها إلى اكتشاف الدورة الدموية قبل «هارفى» بعدة قرون.. لقد أثبت ابن النفيس أن الدم ليس مستقراً ثابتاً فى الأوردة والشرايين، بل هو سائل سائر يدور فى جميع أجزاء الجسم.

ابن يونس:

وابن يونس يخصِّص الكثير من وقته للنظر فى الساعات، وتطويرها ويخترع بندول الساعة الذى نسميه « الرقَّاص».

يقول الدكتور عبد الحليم منتصر فى كتابه « محاضرات فى العلوم عند العرب »:

« ولقد رصد ابن يونس كسوف الشمس وخسوف القمر فى

القاهرة، وقد وصف فى زيجه الحاكمى الطريقة التى اتبعها فلكيُّو العرب فى عصر المأمون فى قياس محيط الأرض.

وهو الذى اخترع البندول، وبذلك يكون قد سبق «جاليليو» بعدة قرون، وكان يُستعمل لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد، كما استُعمل فى الساعات الدقَّاقة، وقد برع ابن يونس فى حساب المثلثات وأجاد فيها، وفاقت بحوثُه بحوثَ كثير من الرياضيين، وقد حل مسائل صعبة فى المثلثات الكروية، واستعان فى حلها بالمسقط العمودى للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقى، ومستوى الزوال.

وابتدع قوانين ومعادلات كان لها قيمة كبرى قبل اكتشاف اللوغاريتمات».

البيرونى:

يقول عنه المستشرق الألمانى الذى نشر بعض كتبه: إنه أكبر عقلية ظهرت على مجرى التاريخ، وكتبه عن عقائد الهند، وعن المجتمع الهندى فى عصره، تعتبر من المصادر الأولى فى الدراسة عن الهند فى العصر الحاضر.

ولقد روى عن أبى الريحان البيرونى قصة واقعية تبين مدى حرصه على العلم:

روى ياقوت فى «معجم الأدباء»، عن الفقيه على بن عيسى الوالجى.. قال:

« دخلت على أبى الريحان وهو يجود بنفسه، قد حشرج نفسه، وضاق به صدره، فقال فى تلك الحال: كيف قلت لى يوماً حساب الجدَّات الفاسدة: (يعنى: ميراث الجدَّات لأم). فقلت له - إشفاقاً عليه: أفى هذه الحالة ؟! قال لى: يا هذا، أودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيراً من أن أخلِّيها وأنا جاهل بها ؟

فأعدت ذلك عليه وحفظه.

وخرجت من عنده فسمعت الصراخ وأنا فى الطريق ».

ولقد كان البيرونى من كبار العلماء فى التاريخ، بل يقول المستشرق (سخاو) عنه إنه أكبر عقلية علمية فى التاريخ، ومن كبار العلماء فى علم الفلك.

ويقول المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام عنه:

« هو من أعلام العلماء فى تاريخ الإنسانية كلها ».

ولسنا هنا بصدد التأريخ لعلماء المسلمين، ونكتفى بكلمة للدكتور عبد الحليم منتصر عن ابن الهيثم، وعن البيرونى.. إنه يقول فى كتابه النفيس« محاضرات فى العلوم عند العرب»:

«يقول ابن الهيثم: إنه ما مدت له الحياة، سيبذل جهده، ويستفرغ قوته، فى التأليف، متوخِّياً أموراً ثلاثة:

أولها: أن يجد الناس فى كتبه بعد موته الفائدة والعلم اللذين يقدمهما لهم فى حياته.

وثانيها : أن يجعل من التأليف وتدبيج الرسائل ارتياضاً لنفسه بهذه الأمور .

وثالثها : أن يدخر من تلك التآليف عدة للشيخوخة وأوان الهرم .

وعندما أراد أحد الأمراء أن يُجرى عليه أموالاً كثيرة ، قال ابن الهيثم :

«يكفينى قوتٌ يوم وتكفينى جارية وخادم ، فما زاد على قوت يومى ، إن أمسكته كنتُ خازنك ، وإن أنفقته كنت قهرمانك ، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين ، فمن ذا الذى يشتغل بأمرى وعلمى .

«فما قَبِلَ بعد ذلك إلا نفقةً احتاج إليها ولباساً متوسطاً .

وقد رد ابن الهيثم لأحد الأمراء ما كان قد دفعه أجر تعليمه قائلاً :

«خُذْ أموالك بأسرها فلا حاجة بى إليها ، وأنت أحوج إليها منى ، عند عودتك إلى مُلكك ، ومسقط رأسك ، واعلم أن لا أجرة ولا رشوة ولا هدية فى إقامة الخير» .

ويقول سارتون عن ابن الهيثم:

إنه أكبر عالم طبيعى مسلم ، ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر (الضوء) فى جميع الأزمان .

فقد كان أساس الأخلاق عند ابن الهيثم إيثار الحق وطلب العلم، ألسنا نجد فى خُلُق ابن الهيثم - العالم العربى المصرى - خُلُق العالم الفاضل، ألسنا نرى أنه مثلٌ يُحتذى فى حياته، وأنه لمثلٌ يُحتذى به فى عصره، ومن بعده بنحو ألف من الأعوام »[1].

وكذلك تميز البيرونى بعقلية علمية نادرة المثال، نستطيع أن نضعها فى مصافٍّ أرقى العقليات العلمية فى الوقت الحاضر، ومن عجب أن يتميز البيرونى فى فنون مختلفة غاية الاختلاف، فهو فى الفلك «فلكىٌّ ممتاز» بشهادة علماء الفلك من الفرنجة والعرب، وهو فى الجيولوجيا «جيولوجىٌّ ممتاز» بشهادة الجيولوجيين المعاصرين.

وهو فى التاريخ مؤرِّخ محقِّق مدقِّق واسع الاطِّلاع شامل المعرفة، قادر على الاستقراء والاستنتاج، وإنما استطاع أن يجمع بين هذه العلوم بما أوتى من قدرة فائقة على البحث والدرس، وما وُهبَ من ذهن خارق جبَّار.

يُروى أنه لما أتمَّ البيرونى تأليف كتابه « القانون المسعودى» حمله إلى السلطان الذى أراد أن يجزيه على هذا العمل العظيم ما يستحقه، فوجَّه إليه ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من نقود الفضة، فردَّها البيرونى قائلاً :

(١) محاضرات فى العلوم عند العرب للدكتور عبد الحليم منتصر، ص ٨١.

« **إنَّهُ إنَّما يُخْدَمُ العِلْمُ للعِلْمِ لا للمَال** »[1].

ويعدُّ الأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح، بعض أعلام العلماء المسلمين فيقول:

« والإسلام بدعوته إلى العلم هو الذى خَرَّج رجال الحضارة، وجهابذة العلم وأساتذة الدنيا وعمالقة العلماء، أمثال:

ابن الهيثم، والكندى، والفارابى، وابن سينا، والبيرونى، والفرغانى، والطوسى، والبغدادى، والدينورى، والرازى، والقزوينى، والأنطاكى، والزهراوى، والخوارزمى، والصدفى، وجابر، والجاحظ، وابن البيطار، وابن النفيس، وابن حيان، وابن حمزة، والإدريسى، والمسعودى، وابن بطوطة، وابن زهرة» [2].

هؤلاء الأعلام (وكثير ـ غيرهم ـ فى كل فن) هم ثمرة هذه الدعوة الإسلامية التى بلغت ـ فى الإشادة بالعلم ـ الذروة.

* * *

(١) المصدر السابق.

(٢) مجلة «الرسالة الإسلامية» التى يصدرها ديوان الأوقاف بالعراق.

٨ أسطورة التعارض
بين الإسلام والعلم

مسألة الصلة بين الدين والعلم ـ انسجاماً واتفاقاً، أو تعارضاً ونزاعاً ـ مسألة تُثار دائماً.

ولقد كتب الغربيون كثيراً فى هذا الصدد، بل هم أول من كتب فيه، ولكن هذه المسألة تجاوزت الغرب إلى الشرق، وكتب مفكرو الشرق فيها، واختلفوا فيما بينهم كما اختلف مفكرو الغرب.

وإن ما كتبه العلاَّمة الفرنسى « إميل بوترو » ـ فى هذا الصدد ـ يعطينا صورة عن هذه المسألة فى الغرب وفى الشرق الحديث، إنه يقول:

« إن أمر العلاقات بين الدين والعلم، حين يُراقَب فى ثنايا التاريخ، يثير أشد العجب، فإنه على الرغم من تصالح الدين والعلم مرة بعد مرة، وعلى الرغم من جهود أعاظم المفكرين التى بذلوها ملحِّين فى حل هذا المشكل حلاً عقلياً لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم الكفاح، ولم ينقطع بينهما صراع يريد به كل منهما أن يدمر صاحبه، لا أن يغلبه فحسب.

على أن هذين النظامين لا يزالان قائمين، ولم يكن مجدياً أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم، فقد تحرر العلم من هذا الرِّق، وكأنما انعكست الآية منذ ذاك.

وأخذ العلم ينذر بفناء الأديان، ولكن الأديان ظلت راسخة، وشهد بما فيها من قوة الحياة عنفُ الصراع »[1].

ويسترسل المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق، فيقول:

« ولسنا نريد أن نعرض لتاريخ العلاقات بين الدين والعلم على مر العصور، وما تناولها من سلم وحرب، فإن ذلك بحث طويل، وليس هو مما قصدنا إليه فى هذا الكتاب، على أنه قد يكون غير خلْو من المناسبة لغرضنا أن نذكر ما كتبه إميل بوترو عن موقف العلمَ والدين فى أيامنا هذه، إذ يقول:

ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمى والروح الدينى، فليس يعنى العالم أن يكون ما جاء فى الدين من عقائد متفقاً مع نتائج العلم، لأن الأساس الذى يعتمد عليه الدين فيما يجىء به يختلف عن الأساس الذى يعتمد عليه العلم، فالدين يقدم مسائله على أنها عقائد يجب الإيمان بها، أى: يجب أن يتقيد بها العقل والوجدان، ويعرضها فى صورة تدل على اتصال الإنسان بنوع من الأشياء يعجز علمنا الطبيعى عن إدراكه، وفى ذلك ما يجعل العالم - إن لم يرفض هذه المسائل نفسها - يرفض الأسلوب الذى يسلكه المتدين فى الأخذ بها. والمتدين من ناحيته إذا وجد جميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة، بل

(١) «الدين والوحى والإسلام» للمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق.

مثبتة بالعلم يكون حينئذ أبعد شيء عن مسالمة العلم، فإن هذه الشئون إذا شُرحت على هذا الوجه فقدت كل خواصها الدينية » اهـ .

والواقع أن كلام « إميل بوترو » الذى ترجمه الشيخ مصطفى عبد الرازق، يتحدث عن الجو الأوربى المسيحى، وعن البيئة الأوربية المسيحية ، ومن الخطأ أن ننقل ذلك النزاع إلى البيئة الإسلامية .

أما كونه يصوِّر البيئة الأوربية المسيحية، فإن ذلك واضح لكل مَنْ درسَ تاريخ أوربا المسيحى، فى موضوع العلاقة بين الدين والعلم .

إن الكنيسة ـ فى فترة من فترات حياتها ـ تبنَّت آراء أرسطو، لقد تبنتها فى الطبيعة وتبنتها فيما بعد الطبيعة، وما كانت آراء أرسطو فى يوم من الأيام ديناً . وكان للكنيسة ـ فضلاً عن ذلك ـ آراء آمنت بها، تتعلق بالعالم الطبيعى، لا أساس لها من الحق ولا تستند إلى علم يقينى ـ ولا تمتُّ إلى العلم بصلة ـ وإنما هى شائعات اتخذت طريقها إلى العقائد، وما كانت إلا أساطير .

وحينما بدأت النهضة ، وحينما بدأ تطبيق المنهج الاستقرائى «منهج التجربة والملاحظة » تبيَّن العلماء من خلال المراصد والمعامل، ومن نتائج التجارب والملاحظات، أن آراء أرسطو فى الطبيعة لا تخلو من خطأ، وأخذوا يعانون هذه الأخطاء المرة بعد المرة .

وكانت الكنيسة ـ حينئذ ـ مسيطرة على أوربا، وكانت محاكم التفتيش قائمة على قدم وساق، تنكِّل بكل منحرف عن تيَّار الكنيسة.

وبدأ ـ إذن ـ التنكيل بالعلماء، يأخذ مجراه، فى صورة قاسية بشعة، لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية.

ولكن العلماء لم يثنهم ذلك عن البحث والدراسة، وإعلان النتائج والإسفار عن الحقائق. فلما رأت الكنيسة ذلك زاد غيظها وزادت حدَّتها، وكان لها فى كل يوم فريسة، وكان للعلم فى كل يوم شهيد، وكثر شهداء العلم كثرة جعلت الناس يعتقدون أن بين الدين المسيحى والعلم تعارضاً وتضارباً واختلافاً.

والواقع أنه كان بين المذهب ـ كما تراه الكنيسة ـ والعلم، تعارض وتضارب واختلاف، ولكنك لا يمكنك أن تسمِّى المذهب الذى كانت تراه الكنيسة ـ إذ ذاك ـ ديناً.

إذن: فإنه ما كان يمكن أن تقوم فكرة «التعارض بين الدين والعلم» لو التزمت الكنيسة الدين المسيحى، كما جاء به السيد المسيح عليه السلام.

هذا من جانب، أما من الجانب الآخر: فإنه إذا كانت فكرة «التعارض بين الدين والعلم» نشأت فى أوربا للأسباب التى ذكرناها، فإنه ما كان يجب أن تُنقل إلى الشرق وتُناقش فى

الأجواء الإسلامية، فإن الإسلام نشأ ـ كما رأينا ـ حليفاً للعلم، حاثاً عليه، مُوجباً له، مُشيداً به، إلى درجة لا يُدانيه فيها غيره.

ومع ذلك: فإن الأمر العام الذى نريد أن ننبه عليه، هو أن مسألة التعارض بين الدين والعلم إنما هى مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر.

ذلك أن العلم وممثليه الحقيقيين يعترفون فى صراحة لا لبس فيها، وفى وضوح لا خفاء فيه؛ بأن دائرة أبحاثهم إنما هى المادة، وإنما هى المُحَسُّ، وأنهم يعتمدون فى ذلك على التجربة، وعلى الملاحظة. إنهم يعتمدون على الاستقراء على وجه العموم وليس الاستقراء إلا تتبُّع جزئيات مُحَسَّة، تتبُّعها بالملاحظة، أو بإجراء التجارب عليها.

المنهج العلمى ـ إذن ـ إنما هو منهج لمعرفة كيفيات المادة، وإذا ما خرج الأمر عن دائرة المادة فقد خرج عن دائرة العلم.

وعلى هذا الأساس: فليس للعلم ـ مطلقاً ـ دخلٌ فى أمور الدين: إثباتاً وإقراراً أو نفياً وإنكاراً.

وإذا ما قال قائل: «إن العلم يُثبت كذا من الأمور الروحية».. فإنه يكفينا منه هذه الكلمة لنسحب ثقتنا به كعالم.. وإذا ما قال: «إن العلم يُنكر كذا من الأمور الروحية».. فإن هذه الكلمة تكفى أيضاً لنسحبَ ثقتنا به كعالم؛ إذ إن العلم ـ فى المجال الروحى ـ لا يُثْبِتُ ولا يَنْفِى، وهذا واضح مما سبق أن ذكرناه.

ومع ذلك فقد يتيح العلم بأبحاثه فى ارتباط الكون وتنسيقه وإبداعه، والتناغم الذى يسوده، والدقائق الباهرة التى يبينها «علم التشريح» مثلاً فى التركيب الحيوانى . .

قد يتيح العلم من كل ذلك لعلماء الدين وسائل يبنون عليها تذكيرهم، وعظاتهم ، وبيانهم القائم على أن العالم لم يكن نتيجة الصدفة العمياء ، أو الاتفاق الأصمّ ، ويبينون من نتائج العلم أن الآيات ـ فى مجال المادة نفسها ـ تشهد أنها من صنع الله الذى أتقن كل شىء :

﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾(١) .

إن دائرة الدين لا تتحدُّ مع دائرة العلم ، فلا يتأتَّى أن يكون بينهما تعارض . . إن العلم لا يبحث فى العقائد من حيث هى وَحْىٌ، ولا فى الخير والشر باعتبارهما حقائق أخلاقية، ولا فى التشريع من حيث ما يجب على الأمة أن تَسُنَّ من قوانين .

وهذه كلها هى المجالات التى يعلن الدين وحى السماء فيها، واجبات وفروضاً، أو مُبَاحات وجَائزات، أو مُحَرَّمات ممنوعات .

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

وإنه لتقليد ببغاوات أن ننقل الفكرة التى نشأت فى التعارض بين الدين والعلم ـ من بيئتها الجزئية، ومن ظروفها الخاصة ـ إلى مجال الدين عامة، أو مجال الدين أينما كان، وفى أى زمان وُجد . . وإنه لمن التهريج الواضح، وسوء النيَّة المبيَّتة أن ننقل الفكرة من جو المسيحية إلى جو الإسلام الذى كانت أول كلمة فى وحيه «**اقرأ**»، والذى يصل بالعلماء إلى أن يُشْهِدَهُمُ التوحيد مع الله ومع ملائكته.

* * *

٩ـ المناهج العلمية بين الإسلام والحضارة الحديثة

لا ريب فى أن الحضارة الحديثة بدأت فى قوة جارفة ، بمنهجين فى العلم يختلفان ، ويتعارضان ، ويتنازعان :

أحدهما : المنهج الحِسِّىُّ التجريبىُّ، أو المنهج البيكونى .

والثانى : المنهج العقلى البَدهىُّ، أو المنهج الديكارتى ، أو المنهج الحَدْسىُّ حينما نفسر الحَدْسىَّ كما فسره المناطقة بأنه : انتقال الذهن إلى المطلوب بسرعة .

وكل من المنهجين نشأ معارضاً لمنهج القياس الأرسطى . وكل منهما يرى أن «القياس الأرسطى» إنما يُعنَى بالصورة والشكل ، ولا شأن له بالواقع والتطبيق ، ومن أجل ذلك سُمِّى بالمنطق الصورى ، أى : منطق الصورة ، لا الجوهر .

والمنهج البيكونى هو منهج علمى .

أما المنهج الديكارتى فإنه منهج فلسفى .

والمنهج التجريبى :

هو المنهج الذى قامت عليه الحضارة الحديثة ، ومن أجل ذلك سنقصر حديثنا عليه .

إنه منهج الاستقراء ، أى : تَتَبُّعُ الجزئيات عن طريق التجربة فيما يمكن أن يخضع للتجربة وعن طريق الملاحظة فيما لا يتأتى أن

يخضع للتجربة، للوصول إلى الحكم عليها ـ في صورة من صورها ـ حكماً كلياً، أو بعبارة أخرى: للوصول إلى اكتشاف القوانين العامة، أو للوصول إلى معرفة نواميس الكون.

ومجال الاستقراء: إنما هو الطبيعة؛ لأنه ملاحظة جزئيات في عالم الطبيعة، وأداته الحسّ، فهو ملاحظة محسوسات.

وعلى أساس من هذا المنهج قامت الحضارة الأوربية الحديثة بكل ما فيها من صناعة في الطبيعة، ومن اكتشافات في الكيمياء، ومن قوانين فلكية، ومن اختراعات في جميع المجالات المادية والحسية.

وعلى أسس من هذا المنهج ـ أيضاً ـ ستتطور هذه الحضارة، وترقى وتتسع ـ كَمّاً وكيفاً ـ إلى ما شاء الله.

وهذا المنهج، في المشهور المتعارف، يَدينُ ـ في وجوده ـ إلى «فرانسيس بيكون» ولكنه عند الدارسين لتاريخ الفكر الأوربي، يدين لـ «روجر بيكون» أكثر مما يدين لغيره. والملاحظون الدارسون للعلوم يرون أن روجر بيكون كان أدق وأعمق في بيان المنهج وفي تطبيقه، بيد أن روجر بيكون ـ على خلاف كثير من مواطنيه ـ يعترف في صراحة لا لبس فيها، وفي وضوح لا شائبة فيه، أنه مَدينٌ في منهجه للعرب وللحضارة العربية.

هذه «الحقيقة» التي حاول الغربيون ـ جاهدين ـ أن ينكروها ويخفوها ـ فيما مضى ـ يعلنها الآن بعض المُنصفين منهم، فها هو

ذا الأستاذ «بريفولت» يتحدث فى كتابه « بناء الإنسانية » عن أصول الحضارة الغربية فيقول :

« إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلوم العربية ـ فى مدرسة أكسفورد ـ على خلفاء معلِّميه العرب فى الأندلس.

وليس لروجر بيكون، ولا لسَمِيِّه الذى جاء بعده، الحق فى أن يُنسب إليهما الفضل فى ابتكار (المنهج التجريبى) ، فلم يكن (روجر بيكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يملّ قَطُّ من التصريح: بأن تعلُّم معاصريه اللغة العربية ، وعلوم العرب : هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقَّة.

والمناقشات التى دارت حول (واضعى المنهج التجريبى) هى طرف من (التحريف الهائل) لأصول الحضارة الأوربية.

وقد كان (منهج العرب التجريبى) ـ فى عصر بيكون ـ قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكبَّ الناس فى لهفٍ على تحصيله فى ربوع أوربا ».

ويقول « بريفولت » أيضاً :

« لقد كان (العلم) أهم ما جادت به (الحضارة العربية) على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التى ولَّدتها ثقافة العرب فى إسبانيا لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضىٍّ وقت طويل على اختفاء تلك (الحضارة) وراء سُحب الظلام.

ولم يكن (العلم العربى) ـ وحده ـ هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثِّرات أخرى كثيرةً من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية » .

ويقول بريفولت أيضاً :

« إن ما يدين به علمنا لعلم العرب : ليس فيما قدَّموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا (العلم) للثقافة العربية بأكثر من هذا.. إنه يدين لها بوجوده نفسه ، فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجود.

و(علم النجوم) عند اليونان ، ورياضياتهم ، كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم ـ فى يوم من الأيام ـ فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية.

وقد نظَّم أهل اليونان المذاهب ، وعَمَّموا الأحكام ، ووضعوا النظريات .. ولكن أساليب البحث ـ فى دأب وأناة ـ وجمع المعلومات الإيجابية ، وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريباً ـ تماماً ـ عن المزاج اليونانى ، ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدها الهلِّينى .. أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة ، ولطرق (التجربة ، والملاحظة ، والمقاييس)، ولتطور الرياضيات إلى

صورة لم يعرفها أهل اليونان . وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية ، أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » .

ويقول الدكتور محمد إقبال ما نَصُّه :

« **ومن أين استقى روجر بيكون ما حَصَّله فى العلوم من الجامعات الإسلامية فى الأندلس . والقسم الخامس من كتابه «Lepus Majus» الذى خصَّصه للبحث فى (البصريات) هو ـ فى حقيقة الأمر ـ نسخة من كتاب «المناظر» لابن الهيثم . وكتاب روجر بيكون ـ فى جملته ـ شاهد ناطق على تأثره بابن حزم**» .

هذه الحقائق التى قدمناها عن حضارة العرب ـ منهجاً وعلماً ـ أصبحت من الذيوع والشهرة لدى المنصفين ، بحيث لا تحتاج إلى التوسع فى الاستدلال عليها .

أخذت أوربا المنهج العلمى المادى عن الإسلام باعتراف واضع هذا المنهج نفسه ، وباعتراف المنصفين من المؤرخين ، وليس بعد اعتراف واضع المنهج نفسه مقالٌ لقائل . .

ومع ذلك : فإن المنهج الإسلامى أكمل وأتمّ ، وأشمل ، وقد أخذته أوربا ناقصاً .

إن المنهج التجريبى يقف عند الطبيعة ، وهو منهج إسلامى ، ولكنه ليس بالمنهج الإسلامى الكامل ، فالمسلم لا ينتهى إلى «الطبيعة» كغاية ، ولا يقتصر عليها كهدف . . وإنما غايته وهدفه

هو ما عبَّر عنه اللَّه سبحانه بقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[1].

وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادى، فإن الإسلام لا يقف عند ذلك وإنما يوجِّه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة: هو القلب، أو هو الروح، أو هو البصيرة.

إن الإسلام يوجِّه الإنسانية إلى «المعرفة الإشراقية»، أو الكشفية، أو الإلهامية. ويجمع الإسلام الاتجاه العلمى الحديث إلى الاتجاه البصيرى؛ فى قوله تعالى:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[2].

فالسمع والبصر: هما أساس العلم المادى، علم التجربة والملاحظة، أما القلب: فإنه أساس العلم الإلهامى.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يوجِّه المسلم إلى الملاحظة والتجربة، ويوجِّهه أيضاً إلى الاستشراف للهداية والنور القلبى عن طريق الخُلق الكريم والتقوى والإخلاص وحب الإنسانية والمعاونة فى الخير.

وإذا كان الإسلام أوسع نظرةً فى الجانب العلمى عن الحضارة الحديثة، وأدق وأشمل، فإنه يختلف معها اختلافاً جذرياً حاسماً فى مسألة الإرادات والنوايا وفى أمر الأسباب والبواعث واتجاه الغايات والأهداف.

إن الحضارة الحديثة تقول: «العلم لا صلة له بالأخلاق»، أو

---

(١) سورة النجم: ٤٢.

(٢) سورة الإسراء: ٣٦.

تقول: « العلم لا أخلاقى ». والعلم ـ فى نظرها ـ لا شأن له بالخير والشر.

ولكن الإسلام يجعل أسس العلم مُتَّسِمةً بالخير، ويجعل غاياته منغمسة فى الخير، ويجعل من العلم قُربَى إلى الله، ويجعل منه عبادة لله، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم.. إن العلم فى الجو الإسلامى «**قراءة باسم الله**».

* * *

١٠ـ إجمال فى موقف الإسلام من العلم

والآن نحب ـ بتوفيق الله تعالى ـ أن نذكر نتائج بحثنا فى كلمات موجزة :

١ـ العلم فى الإسلام شَطْرُ الغاية التى من أجلها نزلت الرسالة، وذلك أن مهمة الرسول ﷺ ـ كما حددها القرآن ـ التعليم، والتزكية :

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(١) .

٢ـ نشأ الإسلام حليفاً للعلم ، منذ أن ابتدأ الوحى بقوله تعالى : ﴿اقْرَأْ﴾(٢) .

٣ـ الإشادة بالعلم فى القرآن والسُّنَّة لا يماثلها ـ فى سُمُوِّها وجلالها ـ إشادة فى الآداب العالمية .

٤ـ العلم الذى يدعو إليه القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية الشريفة : هو العلم بكل نافع فى مجال الكون، وفى مجال ما وراء الكون؛ فى مجال العقائد، وفى مجال الأخلاق، وفى مجال الطبيعة .

٥ـ المنهج العلمى الأوربى الحديث، منهج أخذته أوربا عن الإسلام باعتراف الواضع الحقيقى للمنهج وهو «روجر بيكون» .

---

(١) سورة البقرة: ١٢٩ . (٢) سورة العلق: ١ .

٦ـ لا تعارض بين الدين والعلم، لأن دائرة الدين «الإيمان»، ودائرة العلم «المادة»، وإن الأمل لكبيرٌ في أن تستجيب الأمم الإسلامية لدعوة الله ورسوله، فتجعل من العلم أساساً لنهضتها وشعاراً لها في قيامها برسالتها.

والله الموفِّق المُيَسِّر، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه، ومن اتَّبع هديه إلى يوم الدين.

* * *

١١ـ والواقع أن العلم فى الدائرة الصوفية هو العلم بمعناه الإسلامى أى: العلم بالطبيعة والعلم بما وراء الطبيعة

إن كثيراً من الناس، فى عصرنا الراهن، يحاولون ـ ما استطاعوا ـ أن يقللوا من اهتمام الصوفية بالنسبة للعلم، وربما وجدوا سنداً فى بعض الأوضاع التى لم تأخذ شكلها الصادق فى عصرنا الراهن.

وبعض الأجواء التى تنتسب إلى التصوف قد تعطى شيئاً من المنطق المزيف لأعداء التصوف، ليحاولوا التقليل من شأن الاهتمام العلمى عند الصوفية

والواقع أن العلم فى الدائرة الصوفية هو العلم بمعناه الإسلامى أى: العلم بالطبيعة، والعلم بما وراء الطبيعة: إنه العلم بالأخلاق وبالفضيلة، وهو العلم بالنواميس الإلهية السارية فى الكون والتى يكتشفها علم التشريح أو علم الطبيعة، أو علم الفلك، أو غير ذلك.

وإذا كانت الحقيقة تُسْفِرُ عن قناعها بالأمثلة، فإنَّا نبدأ بمن قال عنه القشيرى:

« **سيِّد هذه الطائفة وإمامهم** ».

إنه « **الجُنَيد** ». لقد كان فقيهاً يفتى فى حلقة أستاذه، وبحضرته، وهو ابن عشرين سنة. وتأمَّلْ ما قاله القدماء عن درسه:

لقد كان الكَتَبة (الأدباء) يحضرون مجلسه؛ لألفاظه.

وكان الفقهاء يحضرون مجلسه؛ لتقريره.

والفلاسفة يحضرون مجلسه؛ لدقة نظره ومعانيه.

أما المتكلمون فكانوا يحضرون مجلسه؛ لتحقُّقه.

وكان الصوفية - من قبل هؤلاء ومن بعدهم - يحضرون مجلسه لإشاراته وحقائقه.

ولقد حضر أبو الحسن على بن إبراهيم الحدَّاد يوماً مجلس القاضى أبى العباس بن شريح فسمعه يتكلم فى الفروع والأصول (أى: فى علم الفقه، وفى علم التوحيد) بكلام حسن.

يقول أبو الحسن: فعجبت منه، فلما رأى إعجابى قال: أتدرى من أين هذا؟..

قلت: يقول به القاضى.

فقال: هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد.

أما علْم الجنيد نفسه، فقد جاهد فى سبيل تحصيله السنين الطوال عَن طريق الدرس والتحصيل، وكان هذا الطريق الجانب الكَسْبىّ من علمه.

أما الجانب الوَهْبىّ، فإنه سُئل: من أين استفدت هذا العلم؟

فقال: من جلوسى - بين يدى الله - ثلاثين سنة، تحت تلك الدرجة.. (وأومأ إلى درجة فى داره).

وقد حفظ الجنيد القرآن، وفهمه، ودرسه، وتدبَّره، وقيَّد الحديث، واستوعبه ـ قدر الاستطاعة ـ لفظاً ومعنى، رواية ودراية.

وذلك أنه يرى ـ كما يرى غيره من الصوفية ـ أن ذلك هو الأساس، ولابد من إحكام الأساس.

وإحكام هذا الأساس يجعل مَنْ أَحْكَمَهُ فقيهاً، ويجعله محدِّثاً، ويجعله مفسِّراً، ويجعله من علماء التوحيد.

ولقد أحكمَ الجنيد هذا الأساس قدر الاستطاعة:

أحكمه تَعبُّداً، وأحكمه استنارة، وأحكمه لأنه صوفيٌّ، وقال فيما رواه القشيرى:

« مَنْ لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث: لا يُقتدَى به فى هذا الشأن، لأن علمنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسُّنَّة ».

ولقد كرَّر الجنيد ﷺ هذا المعنى؛ حتى يثبت فى أذهان الصوفية.

يروى الروزبارى عن الجنيد أنه قال:

« مَذْهَبُنَا هذا مُقَيَّدٌ بأصول الكتاب والسُّنَّة ».

ويروى القشيرى أيضاً عن الجنيد أنه قال:

« عِلْمُنَا هذا مُشَيَّدٌ بحديث رسول الله ﷺ ».

ويكفى أن يتصفح الإنسان رسائل الجنيد ﷺ ليشعر أنه أمام عالم من أئمة علماء المسلمين.

والجنيد ﷺ مثالٌ للصوفىِّ على ما ينبغى أن يكون، ولم يكن الجنيد بدعاً فى عالم الصوفية، فأستاذه الحارث بن أسد المحاسبى لم يكن فى زمانه نظير له فى علمه..

ومؤلفاته كثيرة متنوعة، وكلها فى مستوًى سَامٍ.. حتى أضحت من المصادر الرئيسية التى أفادت الإمام الغزالى وأثَّرت فيه.

وكتاب «الرعاية» للمحاسبى، كتابُ أديب، عالمٍ حُجَّة، وكتابه «فهم القرآن» بحسب ما وصلنا منه من نصوصٍ ـ كتابٌ الباحث الدقيق، الذى يتخذ القرآن والسُّنَّة أساساً، وينطلق منهما إلى إضاءة جوِّ العقائد رداً على المبتدعة والمنحرفين.

ولقد حاول ذو النون المصرى ـ من قبل الجنيد ـ أن يكتشف من مُعمَّيات الكون ما خفى على الكثيرين: لقد كانت له جولات فى عالم الكيمياء، وأسرار الطبيعة، ولقد حاول أن يكتشف أسرار علم قدماء المصريين، وأن يقرأ كتاباتهم، ويتفهم لغتهم. لقد كان يحب اكتناه الغامض، ويحاول أن يزيل القناع عن المحجوب، فضلاً عن شعاره الدائم، وهو القرآن الكريم، وسُنَّة رسول رب العالمين.

وهل أتاك نبأ الإمام القشيرى، وأنه فسَّر القرآن، كما يفسره هذا وذاك من علماء اللغة، وعلماء أسباب النزول، وعلماء

النحو والبلاغة ، وغيرهم ، ولم يكن أقل من أىٍّ منهم فى علمهم وفنِّهم .

إنه لم يكتف بذلك ، وإنما ألَّفَ فى تفسير القرآن : « لطائف الإشارات» فكان إلهاماً من الإلهامات ، وكان نوراً من الأنوار ، ولم يذكر فيه كل الإشارات ، وإنما ذكر لطائفها .

ولقد خاض الإمام الغزالى بحار العلم ، وانغمس فيها ، ويعبِّر عن ذلك بقوله :

« ولم أزل فى عنفوان شبابى ـ منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السنُّ على الخمسين : أقتحم لُجَّة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجَسُور، لا خوضَ الجبان الحَذُور، أتوغل فى كل مُظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحَّم كل ورطة ، وأتفحَّص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين مُحقٍّ ومُبطل، ومُتسنِّنٍ ومُبْدِع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطَّلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته..

.. ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كُنْه فلسفته.

.. ولا متكلِّماً إلا وأجتهد فى الاطِّلاع على غاية كلامه ومجادلته.

.. ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سرِّ صوفيَّته.

.. ولا متعبداً إلا وأترصَّد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

.. ولا زنديقاً معطِّلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دَأْبى ودَيْدَنى، من أول أمرى، وريعان عمرى، غريزة وفطرة من الله، وُضعتا فى جِبلَّتى لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلَّت عنى رابطة التقليد، وانكسرت علىَّ العقائد الموروثة، على قُرب عهد سِنِّ الصِّبا » .

أما الذى طوَّع مختلف العلوم، وامتلك ناصية المعرفة على مختلف فروعها، ووصل فيها إلى القمة : لم يُجَارِهِ فى ذلك فيلسوفٌ من فلاسفة الشرق، ولم يُجارِهِ فى ذلك فيلسوف من فلاسفة الغرب . . فإنه :

الشيخ الأكبر ، سيدنا محيى الدين بن عربى .

لقد طوَّع المعرفة لفكره، وطوَّعها لقلمه، وبلغ فيها القمة، وبحقّ سُمِّى الشيخ الأكبر، ولقد كان فى فتوحاته مفسِّراً خيراً من كثير مَن المفسِّرين، وفقيهاً خيراً من كثير من الفقهاء، وشارحاً للحديث خيراً من كثير من شُرَّاحه ، وفتوحاته كنز من المعرفة لا ينفد، ومَعينٌ من العلم لا ينضب . . إنه رشفة من بحار رسول الله ﷺ تَتَّسمُ دائماً بنضرة منبعها .

والصوفية فى الجانب العلمى لا يكتفون بالجانب الكَسْبى،

أى : جانب التعلُّم من الكتب ، وعلى أساتذة الكتب ، ولكنهم قرأوا فى كتاب الله تعالى :

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(١) .

فتعلَّقت آمالهم بهذا العلم الآتى مباشرة من الله . وتطلَّعت أمانيهم إلى هذا العلم الذى هو من عند الله ، واتخذوا الطريق إليه .

والطريق إليه رسمه الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ، وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ ، إنه الجهاد فى سبيل الله :

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٢) .

وهو العمل بما علموا :

«مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ؛ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» .

وهو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى ، ومن حَقَّق العبودية لله كان الله سمعه وبصره :

« كنتُ سَمْعَهُ الذى يَسْمَعُ به ، وبَصَرَهُ الذى يُبْصِرُ به » .

وشعار الصوفية على وجه العموم فيما يتعلق بالعلم ، هو شعار أستاذهم وقدوتهم وحبيبهم رسول الله ﷺ الذى كان شعاره :

﴿ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾(٣) .

---

(١) سورة الكهف : ٦٥ .
(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .
(٣) سورة طه : ١١٤ .

وإذا كان أهل الظاهر قد فرحوا بعلمهم الظاهر، واكتفوا به، فإن الصوفية قد حَصَّلوا هذا العلم ولكنهم لم يكتفوا به، لقد شاركوا علماء الظاهر فى علمهم، ولكن علماء الظاهر لم يشاركوهم إلهاماتهم وإشراقاتهم . .

هل نذكر فى هذا المجال الإمام الغزالى فى علمه الظاهر، وفى علمه الباطن ؟

هل نذكر القطب الكبير أبا الحسن الشاذلى، أو القطب الكبير أحمد الرفاعى، أو القطب الكبير عبد القادر الجيلانى، فى علمهم الظاهر، وفى علمهم الباطن ؟

والشعرانى الذى ساهم تقريباً فى جميع فروع المعرفة الدينية، أننساه فى هذا المجال ؟ . .

ـ إن «التصوف» و«العلم» يؤلِّفان وحدةً مُتَّحِدةً منذ أن نشأ التصوف.

* * *